

الرحلات العلمية عند علماء توات: تعلمًا، وتعليمًا

كلمة الشيخ أحمد به محمد به حسان

أستاذ التعليم القرآني بقصر عريان الراس تسابيت



توطئة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه ذوي المجد والقدر والوفا، وعلى كل من سار على دربهم ولنهجهم اقتفى، وبعد: إن الحديث عن رحلات التواتيين العلمية. تعلمًا أو تعليمًا. حديث متشعب وطويل، فهو أكبر من أن يختزل في بضع صفحات، أو يتم تناوله في مداخلة محصورة في دقائق معدودات، بل حتى ولو امتدت لساعات وساعات، إن لم نقل لشهور وسنوات، ولكن كما قال الأوائل: ما لا يدرك كله لا يترك جله.

لقد ارتبط التواتيون بالعلم منذ ارتباطهم بدين الإسلام، فانغرس حبه في سويداء قلوبهم، وسرى عشقه في لحومهم ودمائهم، وأخذ بمجامع عقولهم وأفكارهم، وما ذلك إلا إدراكا منهم لسمو مكانته في دينهم، وعلو منزلته ومقامه في شريعتهم، فهو في نظرهم كما في نظر كل المسلم عباد من أجل العبادات، وقربة من أعظم القربات، وطاعة من أسمى وأرقى الطاعات.

يقول الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن البلبالي وهو يرأس بعض تلامذته ممن كان مترددا في الارتحال إليه بقصد أخذ العلم عليه: «وأما ما ذكرت من تحريك في القدم إلينا للقراءة، فاعلم أن طلب العلم من أفضل الأعمال، وقد تعين على من فيه قابلية للطلب، لاسيما في هذا الزمان، فإن أمكنك القدم فلا تتأخر ولا تتردد»⁽¹⁾.

(1) نوازل الغنية ص 6 - مخطوط

إن المصادر التاريخية التي اعتنت بتراجم وسير علماء الإقليم، مشحونة بالقصص والأخبار التي تعكس مدى تعلق التواتيين بالعلم، وحرصهم الشديد على طلبه، وإعمال الرحلة في سبيله، وتحمل المشاق والمتاعب من أجله، ولو أننا رحنا نتبع هذه القصص، ونروي هذه الأخبار لطال الحال بنا، ولكن يكفيننا هنا ما أنشده الشيخ سيدي محمد بن اب المزمري بشأن التحريض على طلبه وتحصيله، حيث قال:

اطلب بني العلم مجتهدا ولا تسأم ولو بتجنب الاوطان

وتجاف عن حزب النساء فقد إن النساء حبال الشيطان

إن هذه القلوب الشغوفة بالعلم، والتواقة الى المعرفة، هي التي جعلت التواتيين يهجرون أوطانهم، ويفارقون أهلهم وأقرباءهم، ويستعذبون مرارة الغربة ومشقة الرحلة من أجله. استفادة وتعلما، ثم إفادة وتعلما. وفي هذا الصدد سأتناول رحلات التواتيين بشقيها التعليمي والتعليمي.

المبحث الأول: الرحلات التعليمية

أولا: دوافع الرحلة عند التواتيين

لقد قرر الامام ابن خلدون رحمه الله في مقدمته: أن الرحلة في طلب العلم إنما هي لمن «تشوف بفطرته إلى العلم ممن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي... فلا بد له من الرحلة في طلبه إلى الامصار المستبحرة»⁽¹⁾.

وهذا ما ينطبق بشكل كبير على عموم طلبة الإقليم التواتي، غير أن هؤلاء الطلبة الذين أعملوا الرحلة إلى خارج الإقليم في سبيل طلب العلم، يمكن تصنيفهم الى صنفين اثنين:

(1) المقدمة - ص 441 - 442، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الصف الاول: وهم أولئك الطلبة الذين فتحت أعينهم على الدنيا خلال تلك الفترة الزمنية التي كانت (توات) تشكو فيها جذبا علميا، وقحطا ثقافيا وفكريا، نظرا لعدم وجود مراكز علمية بالإقليم لقلة العلماء والفقهاء آنذاك، وهي الفترة التي تقع ما بين القرنين التاسع (09) والثاني عشر (12) الهجريين، وهذا ما حمل هؤلاء الطلبة على الرحلة خارج الإقليم، بقصد إزاحة غشاوة الجهل عن عقولهم وأفكارهم، وإشباع نهمهم الفكري وعطشهم العلمي، وهو ما صرح به الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التلاني، حيث يقول في مستهل رحلته العلمية: «قد كنت في حال صغري مشغوبا بالعلم، مولعا بطلبه، مشغولا بقراءة الشيخ خليل والفية ابن مالك، مقبلا على ذلك، متشوقا الى شيخ يحل لي الفاضلها ويوقفني على معانيهما، فلم يتفق لي ذلك، لكون البلد شاغرة من العلماء، إلى أن شرح الله صدري، فتوجهت همتي للسفر لسجلماصة أو فاس، قصدا لذلك، فثيت عنان عزمتي، وصرفت لذلك وجهتي»⁽¹⁾

الصف الآخر: طلبة ساعدهم الحظ في وجود مراكز علمية بالإقليم، بسبب عودة الجيل الاول من بلاد الغربية وإلقائهم عصى التسيار في بلادهم، وتصدرهم لتعليم الناس وإفادتهم، مما ساهم في إحداث نهضة علمية وحركة ثقافية قوية انعكس أثرها على الإقليم التواتي برمته، وهذا ما أخبر به الشيخ سيدي عبد الرحمن بن بعمر التلاني في "فهرسته" حينما تحدث عن رجوع الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التلاني من حاضرة فاس إلى مسقط رأسه (تلان) في آخر شهر ذي الحجة سنة 1129هـ، حيث قال: «فوجد بلاد توات وتجورارين، جيدها عاطل من العلوم، وجل طلبتها لا يحسنون مسائل الوضوء فضلا عن غيرها مما تحار فيه الفهوم، فاستنارت بنور علمه أرجاؤها، وانكشفت لظهور شموسه أقمارها، فوفد عليه الطلبة من كل ناحية، وأخذوا عنه وانتفعوا به كثيرا، وتخرج عليه جماعة»⁽²⁾.

(1) الرحلة في طلب العلم، ص 1. مخطوط

(2) الفهرست ص 4. مخطوط

فهذا المركز العلمي وغيره من المراكز العلمية التي سطع نجمها في أفق الإقليم، وفرت لطلبة العلم رغبتهم في تحصيل قدر كبير من فنون المعرفة، من خلال الأخذ عن أعلامها ومشايخها، لكن الكثير من هؤلاء الطلبة تآقت نفوسهم بعد ذلك إلى الرحلة إلى الحواضر الأخرى، قصد الازدياد من العلم، والتشرف بلقاء العلماء والفضلاء، وأخذ الاجازات العلمية على أيديهم، ويمكننا أن نصرب مثلاً لهؤلاء بالشيخ سيدي محمد بن سيدي عبد الرحمن بن بعمر التلاني، فقد أخذ عن والده وتفقّه به، وتخرج على يديه، ثم رغب بعد ذلك في الرحلة إلى (سجلماسة) لملاقاة الشيخ سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي الذي كان مغرماً بحبه، مشغولاً برؤيته، تواقاً للأخذ عنه، ولذلك راسل والده بخصوص هذا الشأن من بلاد أولف يوم أن كان مقيماً هناك للتجارة والتكسب، ومما قاله في هذه الرسالة بعد التحية والسلام: «...إني كنت أقدم رجلاً، وآخر أخرى في أن أستاذكم إن كنتم ترون أن تبعثوني للشيخ سيدي أحمد بن عبد العزيز لمدينة (سجلماسة) قصداً لزيارته وأخذ ما تيسر عنه، فإني أريد ذلك، ولقد وقعت محبته في قلبي أكثر مما أخفي، ولكن ذلك إن كان مصاحباً لرضاكم لا غير، والامر إليكم ومرجعه لديكم..... وكتب من لا يخافكم رشق بنانه، ابنكم محمد خديم سيدي أحمد بن موسى لطف الله به في الدارين، آمين»⁽¹⁾.

فرد عليه والده برسالة مماثلة، ومما جاء فيها: «وعليك يا بني محمد، ألف سلام ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد: وأما ما ذكرته من رحلتك للأخذ عن شيخنا - أبقاه الله وأدام النفع به - فإني لا أكره ذلك، وإن كان يعز ويصعب علي فراقك، وقد كان - حفظك الله - بعث إلي يطلب مني ذلك، لكن أمهل حتى ينسلخ الشتاء فهو أفضل.... من ترافق لتلك الناحية، لأن السفر إليها في فصل الشتاء صعب، والله يلهمنا وإياك لما فيه صلاح الدين والدنيا، والسلام».

(1) الرسالة وردّها وردت في بعض الأوراق المخطوطة التي قام بجمعها الشيخ سيدي عبد الكريم البلبالي

ثانيا: اتجاهات الرحلة

إن العزيمة التي كان الطلبة التواتيون متسلحين بها في سبيل اكتساب ضروب العلم والمعرفة، سهلت عليهم كل صعب، وقربت إليهم كل بعيد، وجعلتهم يقطعون الفيافي والقفار، ويضربون أكباد الإبل متحملين كل المشاق والمتاعب بحثا عن العلم في جميع المواطن وسائر الاتجاهات.

ومن خلال تتبعنا لخطوات هؤلاء الطلبة، ورصد تحركاتهم وأسفارهم، بالاعتماد على ما تيسر من المصادر التاريخية. على قلتها. أمكننا أن نحصر مسار رحلاتهم في أربعة اتجاهات، وهي كالتالي:

الاتجاه الاول: المغرب الاقصى

إن تداخل العلاقات الاجتماعية بين المغرب الأقصى وإقليم توات، إضافة الى سهولة التنقل إليه، وكثرة حواضره وشهرة أعلامه ومشايخه، كلها عوامل جعلته الوجهة المفضلة بالنسبة لمعظم الطلبة التواتيين، ومن ثم شدوا الرحلة نحوه وتشرفوا بالتنقل بين حواضره العلمية المختلفة، كمدينة فاس، وسجلماسة (تافالالت، ومراكش، وذرعة، ومكناس، وتادلة، ونحو ذلك، وهو ما مكنهم من الالتقاء بعلماء هذه الحواضر والاستفادة منهم، والتلمذ على أيديهم.

وقد كانت حاضرتا فاس وسجلماسة، أكثر الحواضر العلمية المغربية التي حظيت باحتضان أكبر عدد من طلبة الاقليم التواتي، وسأشير الى بعض هؤلاء الاعلام الذين انتهت بهم الرحلة بالمغرب الاقصى عموما، على حسب تاريخ وفاتهم.

1 - الشيخ القاضي سيدي عبد الكريم بن احمد بن محمد المسعود الجراري

(ت941هـ).

انتقل الى حاضرة فاس، وأخذ الفقه عن الشيخ سيدي عبد الله الدقاق الفاسي عن الشيخ الفتوح الحنبلي عن الإمام المناوي أبي بكر بن صدقة عن شمس الدين محمد بن محمد الغماري عن الشيخ خليل رحمته الله صاحب المختصر⁽¹⁾.

(1) فهرست التلاني ص 11 - مخطوط

- 2- الشيخ سيدي محمد بن أبي محمد بن أحمد بن ميمون البكري (ت1008هـ). ذكر ولده في رحلته أن والده (أي: الشيخ المذكور آنفا) رحل في طلب العلم الى فاس، وأخذ بها عن أربع وعشرين شيخا من العلماء المعترين، كالشيخ سيدي المنجور الفاسي، والشيخ ابي عبد الله بن مجير، والشيخ سيدي محمد العدي، والشيخ سيدي يعقوب البدري.... وغيرهم⁽¹⁾.
- 3- الشيخ القاضي سيدي عبد الصمد بن عبد الرحيم بن أحمد الجراري (ت1013هـ) سافر الى المغرب الأقصى، وحل بحاضرة فاس، فأخذ على الشيخ السراج، وعن غيره من العلماء⁽²⁾.
- 4- الشيخ سيدي الحاج بلقاسم بن الحسين الأوسيفي (ت1015هـ) رحل الى إقليم (تادلة) وأخذ العلم هناك عن الشيخ سيدي علي بن إبراهيم التادلي.
- 5- الشيخ سيدي عبد الكريم بن عبد الحكم بن عبد الكريم الجراري (ت1018هـ) قرأ بمراكش، ثم ارتحل منها الى فاس، فأدركه الموت وهو يطلب العلم بها، ودفن هناك في باب الجيثة⁽³⁾.
- 6- الشيخ سيدي عبد الحكم بن سيدي عبد الكريم الجراري (ت1021هـ)، جال في حواضر علمية مختلفة، وقد أقام مدة في حاضرة مراكش، وأخذ بها عن جملة من المشايخ والاعلام⁽⁴⁾.
- 7- الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن البداوي (ت1023هـ) رحل في طلب العلم الى فاس وأخذ عن بعض علمائها وفقهائها⁽⁵⁾.

(1) انظر الرحلة العلمية للبكر اوي ص 2 - مخطوط

(2) انظر ترجمته في ذاكرة الماضي لعبد الرحمن ابن الجوزي ص 159

(3) انظر الرحلة العلمية للبكري ص 10 - مخطوط، وانظر ترجمته مستوفاة في ذاكرة الماضي، من الصفحة 233 إلى 239.

(4) انظر ترجمته في درة الحجال لابن أبي العافية ص 364، وفي ذاكرة الماضي ص 161 إلى 165.

(5) الدرّة الفاخرة للمهداوي ص 7 - مخطوط.

8 - الشيخ القاضي سيدي محمد عبد الله الجراي ت: 1035هـ. سافر الى المغرب الاقصى، وأخذ العلم بفجيج عن الشيخ أبي القاسم بن محمد بن عبد القادر الفجيجي، كما أخذ عن جملة من علماء فاس⁽¹⁾.

9 - الشيخ سيدي عبد الكريم بن محمد البكري التواتي (ت 1042هـ) جال في كثير من حواضر المغرب الاقصى كحاضرة فاس، ومراكش، وسجلماسة، وقد أخذ عن بعض علماء هذه الحواضر، وغيرهم⁽²⁾.

10 - الشيخ سيدي الحاج الصوفي البدياني (ت 1044هـ) سافر الى المغرب الاقصى سنة 1004هـ برفقة جماعة من أهل توات، بإذن من والده رحمه الله ونزل بإقليم (تادلة) «وأخذ عن علمائها، وقد خط رحلته بيده، وهي موجودة في خزانة أحفاده بقصر (بديان) في نحو صفحة أو صفحتين.

11 - الشيخ سيدي عبد العزيز بن حسن بن عيسى الحفصي التواتي (كان حيا سنة 1073هـ) رحل الى المغرب الاقصى، وجال في حواضره العلمية، فأخذ عن الشيخ سيدي الصغير ابن المنيار التادلي، وقرأ بفاس على الشيخ سيدي الواحد بن عاشر، وعلى غيره من العلماء⁽³⁾.

12 - الشيخ سيدي علي بن الشيخ أحمد الرقادي الكنتي (ت 1128هـ) رحل الى فاس، وتلقى العلم عن علمائها، وقصد الزاوية الدلائية المشهورة بالمغرب حيث أجازة كبار علمائها وفقهائها، قبل ان يعود الى مسقط رأسه زاوية كنتة⁽⁴⁾.

(1) انظر ترجمته مستوفاة في ذاكرة الماضي، من الصفحة 198 إلى 221.

(2) انظر ترجمته في رحلته العلمية، وكذا في النبذة في تاريخ توات واعلامها لعبد الحميد بكري ص 120.

(3) انظر ترجمته في الرحلة العياشية ص 161.

(4) انظر أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته لعبد الباقي مفتاح ص 393 - دار الهدى

13 - الشيخ سيدي البكري بن سيدي عبد الكريم التواتي (ت1133هـ)، زار في رحلته العلمية الكثير من الاقطار، وحل في المغرب الاقصى بمراكش، وفاس، فاستفاد من علماء هذين الحاضرتين، وحاز منهم على إجازات علمية في فنون مختلفة⁽¹⁾.

14 - الشيخ سيدي عبد القادر بن بعمر التلاني (ت1152هـ) رحل إلى فاس سنة 1117هـ، وهو ابن تسعة عشر عاماً، فأقام بها نحو ثنتي عشرة سنة يأخذ العلم عن كبار أعلامها ومشايخها، كالشيخ سيدي محمد بن احمد المسناوي، والشيخ سيدي الحسن بن رحال، والشيخ سيدي احمد بن المبارك السجلماسي، وغيرهم.... ثم رجع بعد ذلك إلى الاقليم التواتي 1129هـ⁽²⁾.

15 - الشيخ سيدي محمد بن أب المزمري (ت1160هـ)، رحل الى المغرب الاقصى، وزار فاساً، وحل بسجلماسة، وحضر بها مجلس الشيخ أبي اسحاق سيدي إبراهيم الملايخافي في ألفية ابن مالك، قبل أن يعود ادراجه الى إقليم توات⁽³⁾.

16 - الشيخ سيدي الشاذلي بن سيدي عبد القادر بن عمر (ت1173هـ)، ذكر الشيخ سيدي محمد عبد العزيز البلبالي: أن الشيخ سيدي الشاذلي رحل الى مدينة فاس بقصد القراءة بها، وقد توفي هناك .

17 - الشيخ سيدي محمد بن أحمد الزجلاوي (تبعده سنة 1174هـ) جال في بلاد المغرب الاقصى، ودخل سجلماسة وفاساً، وأخذ عن جملة من كبار المشايخ والعلماء كالشيخ سيدي عبد الواحد القدوسي السجلماسي، والشيخ أحمد بن ناصر الدرعي، والشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن من لا يخاف الفلالي وغيرهم.

(1) انظر ترجمته في النبذة في تاريخ توات واعلامها ص 130.

(2) انظر أخباره في رحلته العلمية، وقد قام بتحقيقها الطالب طموز في إطار شهادة ماجستير بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة.

(3) انظر ترجمته في فهرست التلاني ص 40 - مخطوط

18 - الشيخ سيدي محمد المكنى بأبي زيان بن سيدي الحاج عبد الرحمن التلاني (ت1185هـ)، سافر الى المغرب الأقصى، وحل بمدينة فاس، وأخذ عن بعض فقهاءها، وأدرسته المنية هناك⁽¹⁾.

19 - الشيخ سيدي الحاج خالد التميموني (القرن الثاني عشر الهجري)، قرأ على بعض علماء فاس، وكان يحضر المجالس العلمية التي كان يقيمها الشيخ سيدي عبد القادر بن بعمر التلاني بجامعة القرويين بفاس⁽²⁾.

20 - الشيخ سيدي الحاج عبد الرحيم بن محمد التواتي التماوي التامرتي (القرن الثاني عشر الهجري)، وهو من شيوخ سيدي عبد الرحمن بن بعمر التلاني، رحل إلى فاس وهو صبي، ولازم قراءة القرآن حتى حفظ السبع، وقرأ هناك على الشيخ سيدي إدريس، وعلى الاستاذ الشيخ سيدي محمد بن مقلب، ثم رجع لتوات وأقام فيها بمسقط رأسه⁽³⁾.

21 - الشيخ سيدي عبد الرحمن بن بعمر التلاني (ت1189هـ)، ذكر عن نفسه في فهرسته: أنه خرج من الإقليم التواتي يوم الاثنين التاسع عشر من شهر جمادى الاولى سنة 1168 هـ قاصدا بلاد سجلماسة، وقد وصل الى هناك زوال يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الاخيرة، فأخذ عن الشيخ سيدي صالح بن محمد الغماري السجلماسي اللمطي، وكذا عن الشيخ سيدي عبد العزيز الهلالي، وقد أجازاه إجازة مطلقة في فنون شتى وعلوم مختلفة⁽⁴⁾.

22 - الطالب سيدي محمد الزجلاوي الاقبوري (القرن الثاني عشر الهجري)، شد الرحلة في طلب العلم الى المغرب الأقصى، وحطت به الاقدار في حاضرة سجلماسة، وقد أخذ العلم بها عن الشيخ سيدي عبد العزيز الهلالي.

(1) مخطوط الدرة الفاخرة ص04.

(2) انظر مخطوط: الرحلة إلى قبر الوالد لسيدي ضيف الله بن أب.

(3) انظر ترجمته في فهرست التلاني ص56

(4) المصدر السابق ص83

23 - الشيخ سيدي عبد الرحمن بن إدريس بن سيدي عمر الأكبر التلاني (ت1233هـ)، سافر لفاس، وأخذ عن علمائها، وأبرزهم: العلامة الشيخ سيدي عبد القادر بن شقرون الفاسي⁽¹⁾.

24 - الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي عبد الرحمن التلاني (ت1233هـ)، رحل إلى سجماصة، وأخذ بها عن الشيخ سيدي عبد العزيز الهلالي، ويذكر أنه حين وصل إليه، كتب الشيخ إلى والده يبشره بجلالة قدر ابنه، متمثلاً بقول الشاعر:

إن الهلال إذا رأيت نموه أدركت أن سيكون بدرا كاملاً⁽²⁾.

25 - الشيخ سيدي أحمد زروق بن صابر البداوي الجعفري (ت1245هـ)، سافر لفاس وأخذ عن جملة من علمائها كالشيخ سيدي التاودي بن سودة الذي لازمه ملازمة كبيرة، وختم عليه صحيح الإمام البخاري خمس عشرة مرة⁽³⁾.

26 - الشيخ سيدي أحمد بن عبد الرحمن بن المبروك الونقالي (ت1275هـ) أخذ عن كبار علماء فاس⁽⁴⁾.

27 - الشيخ سيدي محمد دادوش البداوي (القرن الثالث عشر الهجري) رحل إلى مدينة مكناس، وقرأ بها على الشيخ سيدي أبي بكر، كما يظهر ذلك من خلال المكاتبة التي كاتب بها شيخه الشيخ سيدي محمد عبد العزيز البلبالي بأمر من والده الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن البلبالي الذي يعد شيخ صاحب الترجمة.

28 ت الشيخ سيدي محمد الصديق بن عبد الرحمن المهداوي التلاني (القرن الثالث عشر) أخذ عن بعض علماء فاس⁽⁵⁾.

(1) مخطوط الدرة الفاخرة ص 06

(2) انظر مخطوط جوهرة المعاني ص 06

(3) مخطوط الدرة الفاخرة ص 05

(4) الدرة الفاخرة ص 07

(5) المصدر السابق ص 09

الاتجاه الثاني: المغرب الاوسط

لقد حظي المغرب الأوسط (الجزائر) بازدهار علمي وثقافي لا يقل أهمية وشأناً عن الازدهار العلمي الذي عرفه المغرب الاقصى، بل والمشرق العربي، حيث برزت به حواضر علمية عدة ساهمت بشكل واضح وكبير في بعث الحركة الثقافية والفكرية في جميع ربوع الجزائر، كحاضرة تلمسان، وبجاية، ومستغانم، وقسنطينة، وغير ذلك.

وقد كانت هذه الحواضر العلمية مركز اشعاع حضاري بحق، مما جعلها تستقطب انظار عشاق العلم والمعرفة في كل انحاء العالم الاسلامي، وتستهوئ افئدتهم للتوجه نحوها، وشد الرحال إليها.

ونظر للعلاقات المتنوعة المتينة التي كانت تجمع الإقليم التواتي بشتى مدن وحواضر المغرب الاوسط، رغب كثير من طلبة الإقليم في التوجه نحو هذه المدن والحواضر العلمية بقصد الأخذ على فقهاءها وعلمائها، فأعملوا الرحلة باتجاهها، إما ابتداء منها أو انتهاء إليها.

ونذكر من أبرز هؤلاء:

- 1 - سيدي موسى والمسعود الجراي (ت920هـ)، أخذ عن العالم العامل، والولي التقي الفاضل، سيدي أحمد بن يوسف الملياني، وقد انتفع به انتفاعا كبيرا.
- 2 - القاضي الفقيه سيدي عبد الصمد بن عبد الرحيم الجراي (ت1013هـ)، رحل الى حاضرة تلمسان وقرأ بها على الشيخ سعيد المقرئ التلمساني.
- 3 - القاضي الفقيه سيدي عبد الحكم بن سيدي عبد الكريم الجراي (ت1021هـ) تحدث عنه ابن أبي العافية في (درة الحجال) فقال: أخذ عن الفقيه سعيد المغربي بتلمسان، وعن غيره، وهو قاضي تيجورارين اليوم، حي من أهل العصر، وله نظم، اجتمعت به في مراكش سنة 998هـ⁽¹⁾.

(1) درة الحجال ص 364 . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان

4 - القاضي أبو عبد الله سيدي محمد عبد الله الجراري (ت 1035هـ) رحل الى حاضرة تلمسان وتلمذ على الشيخ سعيد المقرئ.

5 - الشيخ سيدي محمد بن عبد الله التطافي (ت 1118هـ) سافر الى تلمسان، وقرأ بها على كبير فقهاءها الشيخ سيدي محمد بوكليخ.

6 - الشيخ سيدي البكري بن عبد الكريم التمنيطي (ت 1133هـ) رحل الى الجزائر العاصمة، ولازم الشيخ سعيد قدورة الجزائري، وأخذ عنه جملة من فنون العلم، وأجيز من قبله بإجازة مطلقة، ويذكر أنه حين وصل الى الجزائر استقبله الشيخ قدورة بفرح وسرور، وأنشد له قائلا:

لو تعلم الدار من قد جاءها فرحت واستبشرت ثم باست موضع القدم
وأنشأت بلسان الحال قائلة أهلا وسهلا باهل الجود والكرم⁽¹⁾

7 - الشيخ سيدي محمد العالم الزجلاني (تبعه عام 1174هـ) خرج في طلب العلم منذ نعومة اظفاره، فجال في حواضر المغرب الأقصى، ثم منها الى حواضر الجزائر، حيث حل بحاضرة تلمسان فاخذ بها عن الشيخ بوكليخ، وفي حاضرة مستغانم فاخذ بعض علمائها كالشيخ سيدي الجيلاني بن أحمد المزغراني، وغيره، وشارك في الدفاع عن مدينة وهران، قبل ان يعود الى مسقط رأسه لينشر علومه ومعارفه بين طلبة الاقليم⁽²⁾.

الاتجاه الثالث: السودان الغربي

لا يخفى على أحد من الناس مدى عمق العلاقة الاقتصادية التي كانت تربط الاقليم التواتي بعموم مناطق ومدن السودان الغربي، وذلك من خلال نشاط الحركة التجارية القائمة بين الجانبين.

(1) النبذة في تاريخ توات وأعلامها ص 130.

(2) لمزيد من الاطلاع على حياته يمكن الرجوع الى ما كتبه عنه الدكتور جراي محمد في قسم الدراسة من تحقيق نوازل، من الصفحة 78 إلى 92.

وقد صوحت هذه الحركة في الوقت ذاته بحركة علمية وثقافية موازية، مما أحدث تأثيراً متبادلاً بين الطرفين بخصوص الجانب الاقتصادي والعلمي. وإذا كان بعض الطلبة التواتيين قد اختاروا لأنفسهم الوجهة الشمالية للإقليم، فإن البعض الآخر منهم آثروا التوجه نحو الجنوب، حيث ولوا وجوههم شطر الحواضر العلمية التي كانت تزخر بها مناطق غرب إفريقيا آنذاك كمدينة تمبكتو وأروان ونحوهما. ونذكر من بين هؤلاء مثلاً:

1 - الشيخ سيدي محمد بن أحمد بن عبد السلطان الأوجروتي (القرن الحادي عشر) ذكر التلاني في فهرسته عنه: أنه أخذ عن الشيخ سيدي علي النحوي، وعن جماعة من علماء التكرور⁽¹⁾.

2 - الشيخ سيدي عبد الرحمن بن بعمر التلاني (ت 1189هـ). تحدث في فهرسته عن نفسه: أنه سافر إلى بلاد التكرور بصحبة شيخه الشيخ سيدي عمرو الرقادي الكنتي، فأخذ بمدينة (أروان) على الشيخ سيدي أحمد بن صالح السوفي التكروري، وعن الشيخ العلامة سيدي أبي العباس أحمد بن الحاج الأمين القبلي الغلاوي، وغيرهم⁽²⁾.

3 - الشيخ أبا عمر بن الحاج محمد الوشاني (القرن الثالث عشر الهجري) أخذ عن الشيخ الونقالي، ثم رحل لبلاد التكرور، وأقام بها سنين عديدة، لاسيما في بلاد تنبكتو، ومهر في الطب غاية، حتى أنه لم يكن له نظير في وقته، ثم رجع إلى بلده وأقام بها حتى وفاته، وهو الذي أم الناس في جنازة شيخه الونقالي.

4 - الشيخ سيدي محمد الحسن بن محمد الحاج الفلاني القبلاوي الساهلي (ت 1352هـ) رحل إلى بلاد مالي، واتصل ببعض علماء حواضرها، واستفاد منهم، وكانت له اتصالات مع آل الشيخ الكنتي مثل الشيخ باي بن عمر، والشيخ محمد بن بادي، والشيخ محمد بن البكاي... وغيرهم⁽³⁾.

(1) فهرست التلاني ص 11 - مخطوط

(2) المصدر السابق ص 44

(3) انظر ترجمته في كتاب قبيلة فلان في الماضي والحاضر للشيخ باي بلعالم ص 33

الاتجاه الرابع: المشرق العربي

وكما جاب طلبة الإقليم التواتي حواضر العلم المحاذية لإقليمهم، فقد انتهت بهم الرحلة كذلك في بعض الحواضر العلمية البعيدة كمثل مدن بلاد المشرق العربي، فتمكنوا بذلك من لقاء كبار العلماء والمشايخ هناك والاختلاط بهم، وإن كان الدافع الأساسي في الغالب الأعم لرحلتهم تلك هو أداء نسك الحج. ونذكر من بين هؤلاء العلماء مثلاً:

- 1 - الشيخ سيدي عبد الصمد بن عبد الرحيم الجراي (ت1013هـ) حل بالديار المصرية أثناء رحلته إلى الحج، وأخذ بها عن الشيخ زين العابدين محمد البكري.
- 2 - الشيخ سيدي سالم بن علي بن سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني (القرن الحادي عشر) رحل لمصر، وأخذ بها عن الشيخ سالم السنهوري، والشيخ محمد النحووي، والشيخ يحيى الأنباي، والشيخ محمد بن الوافدي، والقطب سيدي محمد بن زين العابدين بن سيدي محمد البكري.. وغيرهم، كان حياً في حدود العام العاشر بعد الألف⁽¹⁾.
- 3 - الشيخ سيدي محمد بن اسماعيل الجراي (ت1064هـ) رحل في طلب العلم، فجاب أقطاراً مختلفة، حتى انتهى إلى مصر فأخذ بها عن الشيخ اللقاني، ثم سافر منها إلى مكة والمدينة وبغداد واستنبول (تركيا) وغيرها، والتقى بعلماء هذه الحواضر، وأخذ عنهم وانتفع بهم.
- 4 - الشيخ سيدي عبد الكريم بن الشيخ سيدي محمد التمنطي (ت1042هـ) أخذ بمصر عن العالم العلامة الشيخ سيدي علي الأجهوري، وكذا عن الشيخ سيدي أحمد المقرئ التلمساني نزيل القاهرة والإمام السبكي، وقد أجازوه فيما أخذه عنهم من علوم شرعية مختلفة⁽²⁾.

(1) انظر الرحلة في طلب العلم للبكري ص 15

(2) مخطوط جوهرة المعاني ص 42

5 - الشيخ سيدي عبد العزيز بن حسن بن عيسى الحفصي التواتي (كان حيا سنة 1073هـ) هذا العالم على رغم جلالة قدره، وعظم مكانته، لم يتحدث عنه المصادر التاريخية المحلية، ولم تشر إليه بأي إشارة تذكر، ولولا الرحالة العياشي أمدنا ببعض المعلومات عنه، لما كان لنا أن نعرف عن حاله ولا عن مسيرته العلمية أو التعليمية قليلا أو كثيرا. يقول الرحالة العياشي عنه: «ولم نلق بالطائفة أحدا ممن ينتسب الى علم أو صلاح سوى الشيخ عبد العزيز الذي نزلنا عنده، وأصله من المغرب من بلاد أوكرت من بلاد تيجورارين، وشهرته بالتواتي، وقد جال في المغرب وقرأ على كثير من علمائه كسيدي الصغير ابن المنيار التادلي، ودخل فاسا، وقرأ على سيدي عبد الواحد بن عاشر، وعلى غيره، ثم ارتحل الى المشرق قديما بعد الأربعين والـف، ودخل القاهرة، واتقن القرآن على مقرئها وأستاذها الشيخ سلطان (أي المزاحي) وختم عليه إحدى عشرة ختمة، وأجازه بالقراءات السبع، بل وبالعشر، وكتب له خطه بذلك، ثم انتقل إلى الحجاز وحج، ثم استوطن الطائف منذ أعوام كثيرة، وتزوج امرأة من أهله، ورزق منها عدة أولاد، وله عند أهلها مكانة، يحج كل سنة ويحضر الموسم»⁽¹⁾.

6 - الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم التمنيطي (ت 1092هـ) سافر إلى بلاد الحرمين الشريفين، وأخذ هناك عن جملة من المشايخ والأعلام، ومكث بهما يطلب العلم حتى جاء خبر وفاة والده، فرجع بعد ذلك إلى مسقط رأسه تمنيط، وتولى قضاء الجماعة سنة 1055هـ، فسار فيه بسيرة حميدة وحقق العدل بين الناس جميعا.

7 - الشيخ سيدي البكري بن عبد الكريم التمنيطي (ت 1133هـ) نزل بمصر أثناء رحلته إلى الديار المقدسة لأداء نسك الحج، فالتقى هناك بالشيخ أبي عبد الله محمد الخرشي مفتي الديار المالكية في وقته، فأخذ عنه جملة من فنون العلم، وحصل منه على الإجازة في ذلك، وقصد العراق والشام قبل أن يعود الى الجزائر⁽²⁾.

(1) الرحلة العياشية، ص 131

(2) مخطوط جوهرة المعاني ص 27 - 28

8 - المقرئ سيدي الحاج عبد الرحيم بن محمد التواتي التماوي التامرتي (القرن الثاني عشر الهجري) بعد أن جال في حواضر المغرب الأقصى، رحل للحج، فنزل بالقاهرة، وأخذ عن المقرئ المسن سيدي أحمد البكري السبع على طريق الشاطبية، ويحكي عن نفسه: أنه لما أراد أن يقرأ عليه، قال له الشيخ: هل أنت أخوج؟ أي تاجر كبير، أو متسبب، يعني: هل أردت الطريقة الكبرى التي هي طريقة طيبة النشر للجزري المشتملة على ألف طريق، أو طريقة الشاطبية؟ فقال له: أردت طريقة الشاطبية، فأخذها عنه⁽¹⁾.

المبحث الثاني: الرحلات التعليمية

أولاً: مكانة العلماء التواتيين

إن كل بداية لا بد لها من نهاية، فمن كانت بدايته محرقة كانت نهايته مشرقة، تلك هي سنة الحياة، ولهذا فإن المشاق والمتاعب التي تحملها التواتيون في سبيل تحصيل العلم والمعرفة، لم تضع سدى ولم تذهب هباء، بل ارتقت بهم في نهاية المطاف إلى مستوى علمي عال ورفيع، وهو ما جعلهم يخوضون غمار المنافسات العلمية مع كبار العلماء في حواضر المشرق والمغرب، بل ويسمحون لأنفسهم بتقويم مستوى نظرائهم في مختلف هذه الحواضر، فقد ذكر الشيخ سيدي عبد الرحمن بن بعمر التلاني في فهرسته: أنه سأل شيخه سيدي عبد الرحمن الجنتوري، حينما رجع من الحج عن حال من لقي من العلماء، فقال له: اخترت علماء القاهرة والحرمين، فلم ألق فيهم من يصل أصبع رجل شيخنا أبي حفص، إلا واحدا في علم الحديث لقيته بمكة⁽²⁾.

لقد أثبت العلماء التواتيون جدارتهم العلمية بقوة، مما أكسبهم شهرة واسعة تخطت حدود إقليمهم، وجعلتهم يحظون بالتقدير والاحترام في كل أرض يمرون

(1) الفهرست ص 57. مخطوط

(2) المصدر نفسه ص 36. مخطوط

بها أو يقيمون على أديمها، فها هو الشيخ سيدي عبد الرحمن بن بعمر التلاني يصف في "رحلته الحجازية"؛ تلك الحفاوة البالغة التي استقبله بها علماء مصر حين حل بالقاهرة، فيقول: «وأقبل علي الفقهاء هناك، واعتقدوا في ما لست له أهلا، يأتوا أفواجا للدعاء، ويقدموني للإمامة إذا حضرت الصلاة وأضافني بعضهم في المنزل، وأتاني بالطعام بعضهم لمحل إقامتي»⁽¹⁾.

وتذكر المصادر التاريخية أن الشيخ سيدي علي النحوي الأوجروتي حينما مر بمصر أثناء رحلته إلى الحج، التقى بالشيخ الخرشي فأطلعه على حاشيته على المختصر، فدعا له بخير.

وهذا اعتراف ضمني منه (أي: الخرشي) بمكانة الرجل وعلو منزلته في العلم والمعرفة.

وهكذا نجد علماء جامع القرويين بفاس يعترفون بالفضل والتقدم الأدبي للشيخ سيدي محمد بن أب المزمري، وذلك حينما اطلعهم الشيخ سيدي محمد بن المختار بن عمر الكتتي على جملة من قصائده وأشعاره، فقالوا بكل فخر وإعجاب: ليتنا وجدنا من كلامه أكثر من هذا، وإن قائله له الإجازة التامة⁽²⁾.

إن هذا المستوى العلمي الكبير الذي بلغه العلماء التواتيون، باعتراف نظرائهم في خارج الإقليم، أهلهم للجلوس على كرسي التعليم والتدريس في شتى حواضر العلم شمالا أو جنوبا.

ثانيا: الحواضر العلمية التي علم بها التواتيون

أ. حواضر الجنوب (السودان الغربي)

إن السودان الغربي بمختلف حواضره العلمية، مدين بالفضل لإقليم توات، وذلك بسبب المساهمة الفعالة لعلماء الإقليم ومشايخه فيما عرفه من نهضة علمية واسعة، وحركة ثقافية كبيرة.

(1) الرحلة الحجازية ص 18. مخطوط

(2) الرحلة الى قبر الوالد. مخطوط

لقد هاجر كثير من علماء توات الى أدغال افريقيا، وآثروا التوطن والاستقرار بها، واشتغلوا بنشر العلم والدعوة في جميع أنحائها، فازدانت بهم حواضر السودان، وارتقى بفضلهم هناك فكر الانسان، وهو ما اعترف به المؤرخون الأفارقة أنفسهم كعبد الرحمن السعدي الذي ذكر أن التواتيين كانوا يشكلون نسبة تقارب النصف من مجموع العلماء الذين كانوا منتشرين عبر مساجد وكتاتيب السودان الغربي⁽¹⁾.

ومما يوضح هذا الحقيقة ويؤكدها: ذلكم الكم الهائل من العلماء التواتيين الذين وردت أسماءهم ضمن كتب تراجم أعلام التكرور، ككتاب "نيل الابتهاج" لأحمد بابا التمبكتي، أو "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" للبرتلي، أو "تاريخ السودان" للسعدي.... وغيرهم من المؤرخين.

وهذا بالنسبة للعلماء الذين استقروا بهذه البلاد، أما العلماء الذين أقاموا بها مدة من الزمن ينشرون العلم والدعوة بين اهلها، ثم رجعوا بعد ذلك إلى الإقليم التواتي فعددهم كثير أيضاً، ونذكر من بينهم مثلاً: الشيخ سيدي علي بن الشيخ سيدي احمد الرقادي (ت1008هـ)، فقد أرسله والده إلى تمبكتو، حيث فتح بها مدرسة، فقصده من آفاق مالي، والنيجر، ونيجيريا، والسنغال، وأسلم على يديه خلق كثير من قبائل تلك البلاد، ومكث هناك عشر سنين، ثم عاد الى زاوية ابيه بتوات مع وفد كبير من السودان والعرب⁽²⁾.

ومن بين هؤلاء العلماء أيضاً: الشيخ أبو الأنوار بن عبد الكريم التلاني (ت1168هـ)، فقد أخذ العلم عن سيدي محمد بن دين الله التطافي، ثم سافر لبلاد التكرور، فأقام بها مدة يفتي ويدرس، ثم انتقل لتدكلت وبنى بها زاويته وقام بها إلى أن توفي⁽³⁾.

(1) انظر تاريخ السودان ص 237

(2) انظر أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته لعبد الباقي مفتاح ص 393 - دار الهدى

(3) مخطوط الدرة الفاخرة ص 03

وغير هؤلاء كثير وكثير، لكن الذي ينبغي أن نعترف به، هو أن جميع هؤلاء الأعلام الذين نشروا العلم بغرب إفريقيا وكان لهم دور في تنشيط الحركة العلمية والدعوية بحواضرها، يظل أثرهم محدودا بالنسبة للأثر الأكبر الذي أحدثه شخص اعترف الجميع بعظم دوره وعلو قدره ومكانته، ألا وهو الشيخ سيدي عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي (ت909هـ).

لقد هاجر هذا العالم الفذ، والمصلح البارع، من تلمسان متجها صوب بلاد توات، فمكث بها متعلما ثم معلما، ثم مجاهدا ومناضلا، ومنها توجه نحو بلاد السودان الغربي، فكان له فيه أثر كبير لا يمكن أن ينسى أبداً.

وقد أشار ابن أبي مريم في البستان إلى هذا الأثر حيث قال عن الشيخ: «...ثم ارتحل (أي المغيلي) إلى بلاد أهير ودخل بلدة (تكدة) واجتمع بسلطانها، وقرأ عليه أهلها وانتفعوا به، ثم دخل بلاد (وكشن) من بلاد السودان، واجتمع بسلطان (كنو) وكتب له رسالة في أمور السلطنة.... وعلمهم أحكام الشرع وقواعده، ثم ارتحل إلى بلاد التكرور، فوصل إلى بلاد (كاغو) واجتمع بسلطانها أسقيا الحاج محمد وجرى على طريقته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائل⁽¹⁾.

وقد تحدث المرحوم الشيخ آدم الألوري أيضا عن هذا الدور الريادي الذي لعبه الشيخ المغيلي في دفع حركة الإصلاح بغرب إفريقيا حيث قال عنه: فقد استفادت البلاد منه كثيراً، وآثاره كثيرة في ميادين عديدة واضحة ملموسة لكل صغير وكبير في الحكم والسياسة والعلم والأدب، ولقد تعلم منه الكثيرون والكثيرون من علماء هذه البلاد، واتصل بسلاطين (كانو) و(كشنة) و(اكزز) و(تكدا) ووضع لهم وصايا سياسية على القواعد الشرعية، وهي محفوظة في الدوائر الحكومية ومعمول بها في الأوساط الرسمية»⁽²⁾.

(1) البستان ص 255

(2) مصباح الدراسات الأدبية في الديار النجيرية ص 18 . 19

ب - حواضر الشمال (المغرب الاقصى - والمغرب الاوسط)

وكما ساهم العلماء التواتيون في نشر العلم بحواضر غرب إفريقيا، فقد ساهموا كذلك. وإن كان بدرجة أقل. في نشر العلم بحواضر المغرب بشقيه. الاقصى والأوسط. فقد سطع بهذا الحواضر نجم كثير من علماء توات الذين هاجروا هم أو آبائهم إليها واستوطنوها، فكان لهم إسهام قوي بها من خلال تصدرهم لتعليم الناس، وتوجيههم وإرشادهم وإصلاح أخلاقهم، ومن بينهم: الشيخ ابو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي (ت 941هـ)، والشيخ أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي الذي يعد ألمع المقرئين بحاضرة قسنطينة (ت 1031هـ)، وكذا الشيخ أبو العباس أحمد التواتي صاحب كتاب "مقامة التحلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي" وكذا الشيخ الفقيه العلامة أبو عمرو عثمان التواتي قاضي سلا، المتوفى زوال يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شوال سنة 1158هـ، وغيرهم كثير جدا.

لكن هؤلاء الأعلام الذين أشرنا إليهم - برغم شهرتهم - لا تسعفنا المصادر التاريخية بالتعرف على حياتهم، أو الاطلاع على تفاصيل أمورهم، ولذلك لا يمكن أن نكتفي بهم في الاستدلال على صحة ما قلناه، بل لابد ان نسوق نماذج أخرى من علماء المنطلقة التواتية، ممن تصدروا للتعليم والتدريس في بعض حواضر المغرب - أقصاه أو أوسطه - قبل أن يستقر بهم المقام أخيرا بالإقليم.

ونذكر من أبرز هؤلاء مثلا:

1 - الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التلاني: فقد ذكر عن نفسه في رحلته العلمية: كيف أنه تصدر لتدريس الطلبة بفاس بالمدرسة المصباحية، ثم بجامع القرويين، وقد كثرت الطلبة عليه حتى اتخذوا له كرسيا لسمعهم، وقد وصف رغبة الطلبة في حضور مجلس درسه وبين سبب ذلك فقال: وكان الطلبة يزدحمون على مجلسي في التدريس، ويرغبون فيه، لا لكوني أفقه من غيري، بل

غيري افقه مني وأحسن، ولكن لكوني كنت أوضح لهم المسائل وأفهمها وأبينها لهم جهدي بعبارة سهلة، واختار الفهم والبيان لهم على تحسين العبارة والتأنق فيها، بنية خالصة، فانتفعوا بسبب ذلك علي انتفاعا كثيرا⁽¹⁾.

وقد تحدث عن هذا أيضا تلميذه الشيخ سيدي عبد الرحمن بن بعمر التلاني في فهرسته لدى حديثه عن مشايخ الشيخ، ووضح مدى حفاوة الطلبة به فقال: وكان في أثناء تلك المدة يقرئ هو أيضا الطلبة بالمدرسة المصباحية محل إقامته، ولما اشتهر أمره وظهر حاله، وفاح طيبه، طلب منه الإقراء بجامع القرويين، فأقرأ به مدة جالسا على الارض، ثم أن الطلبة لما كبرت الحلقة، وضعف عن إبلاغ أقصاها، نصبوا له كرسيًا ليجلس عليه، فلما جاء لوضعه على العادة وجده فأبى أن يجلس عليه وجلس بحذائه، فلما انقضى المجلس ألح عليه الطلبة في الجلوس عليه، وشكوه عذرهم، فلم يسعفهم بمرادهم وأبى ذلك كل الإبائية، فلما رأوا ذلك منه، طلبوا حيلة يتوصلون بها لمرادهم، فاتفق رأيهم على أنهم لا يتركون له موضعا يجلس فيه الا موضع الكرسي، فلما جاء غداة ذلك اليوم إلى المجلس، فنظر لم ير موضعا يجلس فيه إلا الكرسي جلس عليه، فاخبرني بعض أهل المجلس أنه لما جلس عليه لم يزل لونه يحمر ويصفر، حتى انقضى المجلس حياء منه وتواضعاً رحمه الله. وتكاثر الطلبة على مجلسه، واتسعت حلقة، حتى إنه لم تبق في الجامع حلقة أعظم منها، وذلك ومعظم أشياخه أحياء، منة من الله تعالى لحسن نيته ونصحه لعباده⁽²⁾.

وهذه المكانة التي حظي بها الشيخ بين طلبة العلم بجامع القرويين، قد ضايق بعض العلماء هناك، مما دفعهم الى محاولة منعه من التدريس بالجامع، وأرسلوا اليه رسولا بخصوص هذا الشأن، لكن طلبة الشيخ كانوا لهذه المحاولة

(1) الرحلة العلمية ص 21. مخطوط

(2) فهرست التلاني ص 04. مخطوط

بالمرصاد، وأعطوا للرسول جواباً قاسياً، من خلال ضربه بالنعال والكراريس والألواح ونحو ذلك⁽¹⁾.

2- الشيخ سيدي أحمد زروق البداوي:

قال الشيخ سيدي محمد عبد العزيز البلبالي بشأنه: استوطن المدينة الإدريسية فاساً، حاطها الله من كل هول وجعلها للدين القويم أساساً، سافر إليها في صغر سنه، وحصل له بها عند ملوكها من الرياسة ما حصل، وكان من المنفردين بها في علم الادب⁽²⁾.

لقد أوضحت للشيخ زروق بحاضرة فاس مكانة علمية كبيرة، فتصدر بها للتعليم والتدريس، مزاحماً كبار علمائها وفقهائها، وتذكر المصادر التاريخية: أن الشيخ الشريف سيدي إدريس العراقي، وكان مدرساً بفاس، وهو من معاصري الشيخ زروق، حينما أنشد في مدح نفسه قوله

إذا ما مات زين العابدين فقل مات الخليل وسيبويه
وقد عظمت مصيبتة علينا ترى كل الورى تبكي عليه

سايره الشيخ زروق فنظم هو الآخر في مدح نفسه قوله:

إذا ما ابن صابر حل الرمس وعن وجهه غاب عند القبس
فقل واذرف الدمع حزناً عليه لقد فاتكم مالك بن انس

وهذا ما يشير بوضوح إلى سعة علم الشيخ وعمق ثقافته وثقته الشديدة بنفسه، وإلا لما كان له أن ينشد هذه الابيات في حاضرة علمية تضم اساطين العلم والمعرفة في مختلف العلوم والفنون.

(1) وقد ساق القصة بتمامها سيدي ضيف الله في مخطوط الرحلة الى قبر الوالد

(2) ذكر ذلك في صدر إجازة الشيخ زروق في صحيح البخاري - مخطوط - خزنة ملوكة

وقد انتفع بالشيخ جملة من الأعلام والمشايخ المغاربة عموماً والفاسيين خصوصاً، ومما يؤكد ذلك: ما ذكره الشيخ عبد الحي الكتاني في "فهرس الفهارس" لدى حديثه عن الشيخ أبي عبد الله محمد التهامي بن المكي بن رحمون الفاسي المتوفى بفاس سنة 1263هـ. قال: وروى صلوات الهاروشي عن شيخه أحمد بن محمد بن موسى بن عبد القادر بن يوسف بن صابر الجعفري التواتي الملقب زروق (ت 1247هـ) عن عمه الفقيه أبي زيد عبد الرحمن بن موسى المذكور عن محمد بن محمد الخياط الهاروشي الفاسي ثم التونسي مؤلف الصلوات⁽¹⁾.

3 - الشيخ سيدي البكري بن عبد الكريم التمنيطي (ت 1133هـ) أسس زاوية بمنطقة الزاب، ثم قصد (تقرت) فأقام بها مدة ثلاثين سنة، ينشر العلم والمعرفة، حتى ألح عليه أصدقاؤه من علماء المنطقة في الرجوع الى توات، فاستجاب لهم أخيراً، وتولى القضاء بالإقليم سنة 1092هـ، فسار فيه بسيرة حميدة، وسلك منهج الحق والإنصاف⁽²⁾.

4 - الشيخ سيدي محمد الصالح بن الشيخ سيدي البكري (ت 1139هـ) ارتحل إلى مدينة تقرت، وظل هناك ينشر العلم والمعرفة بين الناس، ويقوم بتوجيه العامة وإرشادهم وتقويم أخلاقهم حتى أدركته المنية، وقد أحدث أثراً واضحاً في الساحة العلمية بتلك النواحي بفضل جده واجتهاده، وصدقه وإخلاصه.

ج - حواضر المشرق العربي

إن عدداً ليس بالقليل من العلماء التواتيين قد تصدروا للتدريس والتعليم في بعض حواضر المشرق العربي، وذلك أثناء مرورهم بها لأداء نسك الحج، فكانوا يعقدون المجالس العلمية في كل أرض يحلون بها، ويتصدرون لتعليم الناس

(1) فهرس الفهارس ج 1 ص 273.

(2) انظر النبذة في تاريخ توات وأعلامها ص 132.

أمور دينهم في كل بلد يقصدونها، وتحفظ لنا كتب التاريخ بأسماء بعض العلماء التواتيين، الذين تصدوا للتدريس في الجامع الأزهر، أوفي المسجد النبوي الشريف، أوفي المسجد الحرام... ونحوهم.

وحسبنا دليلاً على ذلك: ما ذكره العياشي عن الشيخ سيدي عبد العزيز بن حسن بن عيسى الحفصي التواتي الذي استوطن الطائف ببلاد الحرمين، وكان مرجعاً في علوم كثيرة، ولا سيما علم القراءات، فقد كان كبار العلماء يقصدونه للأخذ عليه، لعلو منزلته وسعة علمه، وشدة ورعه وزهده، وكانت له بتلك البلاد شهرة كبيرة واسعة.

يقول الرحالة العياشي في رحلته: وقصدنا المسجد الأعظم، فأول من لقيناه على بابه: رئيس المقرئين وأستاذ المجودين، الذي لا يشاركه في تحقيق القراءة بأرض الحجاز غيره، ولا يجهل عند الخاص والعام من أهل تلك الديار أمره، الشيخ عبد العزيز بن حسن بن عيسى التواتي⁽¹⁾.

ويخبرنا العياشي عن نفسه أنه أخذ عن الشيخ عبد العزيز بعض السور القرآنية برواية قالون وورش، وأجازه بسنده في القراءة، وفي غيرها من العلوم عن شيخه الشيخ سلطان إلى الإمام ابن الجزري، وفي ذلك يقول رحمته الله: خرجت من مكة المشرفة بعد العشاء الأخيرة ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة إلى الطائف لزيارة حبر الأمة ترجمان القرآن، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عباس رضي الله عنه ووصلنا ضحى يوم الأربعاء، ولقينا هناك رئيس المقرئين وأستاذ المجودين، الشيخ عبد العزيز بن حسن بن عيسى التواتي، وأنزلنا عنده، وأقام بالحق الواجب أتم قيام، فجزاه الله خيراً، وسمعت منه سورة الصف، قرأها علينا أمام ضريح الحبر ابن عباس ثلاث مرات، مرتين بقراءة قالون، ومرة بقراءة ابن كثير، وأجازنا بها بإسناده الآتي إلى ابن الجزري، وقرأت عليه من أول الفاتحة إلى قوله تعالى:

(1) الرحلة العياشية ص 158 - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾⁽¹⁾، أمام الضريح المذكور، بقراءة نافع من طريق قالون، على روايتي أبي نسيط والحلواني، ومن طريق ورش على روايتي الأزرق والأصبهاني، كل ذلك بطريق الطيبة، وأجاز به وبكل ماله قراءة وحديثا ونحوا وأصولا وتصوفا حسبما سطر ذلك كله في إجازة الشيخ سلطان، شيخ الإقراء بمصر، له بعد ما ختم عليه إحدى عشرة ختمة⁽²⁾.

ثالثا: أثر الرحلات على المشهد العلمي بتوات

إن هذه الرحلات العلمية بشقيها. التعليمي والتعليمي، قد مكنت التواتين من الاحتكاك بكبار العلماء في الحواضر العلمية المختلفة، والأخذ عليهم، واقتناء كتبهم ومؤلفاتهم، وهو ما ترك أثرا واضحا وجليا في مسار تكوينهم العلمي والمعرفي، ولهذا حينما رجعوا الى توات، وأسسوا بها مراكز علمية، لم يستطيعوا أن يخفوا ذلك التأثير الذي بدت معالمه ظاهرة في تلك المناهج والمقررات التي اعتمدوها في مدارسهم وزواياهم.

إن معظم المقررات الدراسية التي كانت معتمدة بمراكز الإقليم، تركزت على كتب ومؤلفات علماء المشرق أو المغرب بأقصاه وأوسطه، ففي الفقه نجد: المختصر للشيخ خليل، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، والمرشد المعين لابن عاشر، والتحفة العاصمية لابن عاصم، واللامية للزقاق، وكتاب مختصر العبادات للأخضري، أما في النحو فنجد مثالا: الألفية (لابن مالك)، والأجرومية لابن آجروم، والملحة (للحريري)، وهكذا نجد في مجال العقيدة الصغرى، والوسطى، والكبرى للسنوسي، ومحصل المقاصد للإمام ابن زكري... إلخ.

(1) سورة البقرة/17.

(2) المصدر السابق ص 162

فإذا نظرنا الى هذه المقررات نجد أنها هي المقررات ذاتها التي كان يجري تدريسها في حواضر الشمال أو الجنوب للإقليم، باستثناء بعض الكتب والمؤلفات التي ساهم بها التواتيون في المجال التعليمي كمنظومات ابن أب المزمري، التي لاقت رواجاً واسعاً حتى خارج حدود الإقليم، كمثل أرجوزة العبقري في علم الفقه، ونظم الآجرومية في النحو، وروضة النسرین في علم التصريف.... ونحو ذلك، لكن هذه الكتب - على رغم أهميتها - لم تكن تمثل إلا قلة قليلة من مجموع المقررات الأخرى الوافدة من خارج الإقليم، مما يؤكد لنا عمق الأثر الذي أحدثته الرحلات العلمية في المشهد العلمي بتوات، سواء على مستوى المنهج أو على مستوى المضمون.

وإذا كانت كل الحواضر العلمية الإسلامية قد تمكنت من وضع بصمتها في المسار التعليمي بتوات من خلال الطلبة التواتيين الذين احتضنتهم في أكنافها، أو من خلال الكتب والمؤلفات التي دبجتها أقلام أعلامها، فإن البصمة الكبرى قد حظيت بها حواضر المغرب الأقصى، وتلك حقيقة لا يمكن تجاهلها أو نكرانها، نظراً لكون الغالبية العظمى من علماء الإقليم، هم من خريجي هذه الحواضر، ولهم ارتباط علمي وروحي بأعلامها ومشايخها، فقلما اختلف علماء توات في أمر إلا جعلوا كلمة الفصل فيه لما جرى عليه أولئك الأعلام والمشايخ، ومن بين الأمثلة على ذلك: ما نقله الشيخ سيدي عبد الكريم البلبالي في "غاية الأمانی من أجوبة سيدي عبد الرحمن التتلائي" من خط الشيخ سيدي عبد الله بن أبي مدين التمنطيقي قال: جرى العمل بالبلاد التواتية بترك افتتاح مجالس العلم بالتعود، وبه اخذنا عن أشياخنا، وهم عن أشياخهم، وخالفهم في ذلك شيخنا العلامة سيدي محمد بن الأستاذ سيدي عبد الرحمن بن بعمر، وتكلم في ذلك، فقال له والده: لم تتبعنا ونحن الذين أخذوا عن الشيوخ، فكيف نتبعك نحن، مع أنه لا شيخ لك.

قلت: (أي التمنيطي): وما احتج به شيخنا المذكور - وإن أنكره والده - فهو الذي جرى به العمل بسجلماسة، وأخذنا به هنا، وصرح به السيد في الجواهر⁽¹⁾.
فهذا مثال واحد من عشرات الأمثلة الماثلة في المصادر التاريخية، والتي تثبت صحة ما ذكرنا.

خاتمة

نعود في الأخير لنكرر ما قلناه في البداية، بأن موضوع الرحلات العلمية التواتية، موضوع كبير وطويل، وبرغم ما أنجز حوله من بحوث ودراسات من طرف أساتذة وطلاب جامعيين، إلا أنه لا يزال ميدانا خصبا، يحتاج الى مزيد من التدقيق العلمي والتحليل الموضوعي للخروج بصورة كاملة واضحة، عليها تعكس بحق عظم جهود التواتيين في خدمة العلم، ومساهماتهم الكبيرة في نشر الثقافة والمعرفة، ولكن يجب أن نكون صرحاء بأن هذا الأمر يحتاج الى باحثين مخلصين، متسلحين بسلاح الصبر، يتحملون مشاق البحث والتنقيب في رفوف خزائن المخطوطات المنتشرة عبر شتى مناطق الإقليم، والتي لاتزال تحتوي على كنز نفيس من المعلومات التاريخية التي لو جمعت لأسالت حبر أقلام كثير من الكتاب والمؤلفين الذين يرغبون رغبة شديدة في خدمة تراث هذه المنطقة التواتية، ولكن شح المعلومات أو بالأحرى صعوبة الوصول إليها، هو الذي حملهم على العزوف عن ذلك، فعلى الباحثين من أهالي الإقليم - خصوصا فئة الشباب منهم، أن ينبروا لهذا العمل، وأن يحملوا على عاتقهم القيام بهذه المهمة، وما أشرفها من مهمة لو كانوا يعلمون.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

(1) انظر مخطوط غاية الاماني